

كتاباتي وتأليفي الشخصي

لعنة البصيرة

مطارق السسن في عري الوجود

ليث بن راشد بن ناصر النظيري

المُقَدّمَة: المُواجهة العَارِيَة (تنويه الصدمة قبل القراء

{أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى} [سورة القيامة: الآية 36]

وُلدنا دون أن يلتفت أحدٌ لصرختنا الأولى، ونمضي كأننا لم نكن. يظن الإنسان أنه مركز الكون، وهو ليس سوى ومضة عابرة بين عدمين. الوعي ليس تشريفاً، الوعي عقاب؛ فمن زاد بصيرةً، زاد تمزقاً. يهرب البشر إلى ضجيج التجمعات لأنهم يرتعبون من مواجهة الفراغ في داخلهم. المدن تزدحم بالوجوه، لكن الأرواح تموت في زوايا العزلة الباردة.

{بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ} [سورة القيامة: الآيات 14-15]

تضع قناع المثالية لتعجب عابراً في الطريق، وتنسى أنك مخترقٌ من الداخل. أسوأ أنواع الخداع هو ذلك الذي تمارسه على نفسك لتنام مطمئناً. تبرر خطاياك، وتجمل قسوتك، وتسمي جبنك حكمة. كل عيب تراه في الآخرين هو جزء من طينتك المستورة خلف ثيابك. تظن أنك تملك أصدقاء، وفي أول زلزال تهتز فيه مصالحهم، ستلتفت حولك فلن تجد إلا ظلك. لا أحد ينقذك من قاعك، إما أن تنهض بمشرط قسوتك، أو تندثر.

{اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ} [سورة الأنبياء: الآية 1]

تركض خلف أرقامٍ تسميها ثروة، وخلف أجسادٍ تسميها حباً، والحقيقة أنك تطارد سراباً لتشغل عقلك عن فكرة الفناء. تبني جدراناً صلبة، وتجمع جباية، وتستعرض قوة، وفي طرفة عين، يأتي الأمر فيجعل كل ما بنيته حصيداً كأن لم يغنَ بالأمس. الحياة لا ترحم الباكين، والزمن قطار بارد يمر فوق جثث العواطف دون أن يلتفت.

{كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ} [سورة الرحمن: الآية 26]

خفف من كبريائك المصطنع؛ فالأرض التي تطأها خيلاءً هي بقايا عظام من كانوا قبلَك يظنون أن العالم لن يستقيم بدونهم. متناقضون نحن: نملك عقولاً تدرك الفناء، ونعيش برغبات تطلب الخلود. الحرية الحقيقية ليست في امتلاك العالم، بل في فقدان الرغبة فيه. طالما أنك لا تزال تنتظر مدحاً أو تخاف ذماً، فأنت عبدٌ مقيد. نمشي على ترابٍ مجبولٍ بالدموع، ونموت وفي صدورنا كلمات لم يجد العالم اتساعاً لسماعها. الجناية الكبرى ليست ما يفعله الأعداء بك، بل أنك سمحت للعالم أن يصنعك على مقاس زيفه، بدلاً من أن تكون نفسك.

الفصل الأول: نواميس العمران وسقوط الدول

{إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ} [سورة الرعد: الآية 11]

الدولة إذا بلغت غاية قوتها بدأت أسباب هلاكها من داخلها، لا من عدوّها؛ فإذا كثرت الجباية قلّت الرعاية، وإذا قلّت الرعاية فسد الناس وتلاشت الدولة.

{وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا} [سورة الإسراء: الآية 16]

الإنسان إذا طال به الترف فسد طبعه، وخبُثت سريرته، واستولى عليه الكسل والبطالة. وإذا فسد أهل الدولة فسد الرعيّة، فإنهم يُجرون الناس على طريقتهم. المُلْكُ إذا استبدّ برأيه هلك، وأهلك من حوله. الطمع يُفسد كل خلقٍ جميل، فإذا تمكّن من النفس أوردها موارد الهلاك.

{فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ} [سورة النحل: الآية 112]

إذا عضّ الجوع الناس انقطعت وشائج الأخلاق، ورجعوا إلى طباع الضرورات. وإذا نزلت بالناس شدّة رجعوا إلى طباعهم الأولى، فلا يبقى للحياء ولا للمروءة أثر. النفس لا تُظهر حقيقتها إلا عند القدرة؛ فمن استقام عند القوة فهو الكريم، ومن فسد عندها ففساده أصلٌ فيه.

الفصل الثاني: عُرى النفس البشريّة وغيب النوايا

{إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ} [سورة إبراهيم: الآية 34]

يساء فهمي كثيراً وأنا لستُ من مُحبي التبرير. أحقاً أننا نمثل أرقى جنس وجد في هذا الكون؟! في زمننا هذا إياك أن تشعر أحداً باحتياجك له. تبين لي أن الجميع يعاني باستمرار، بما في ذلك هؤلاء الذين تظاهروا بأنهم لا يعانون. لن أتمسك بيد لم تشد على يدي عندما احتجتها. لا أحب أن أكون صنيعة المجتمع، أحب أن أكون نفسي وليس وجهاً مصطنعاً ليعجب الآخرين.

{قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ} [سورة آل عمران: الآية 29]

من الأشياء المرعبة في الحياة أنك لا تعلم أبداً ما هي النوايا الحقيقية للأشخاص تجاهك. الشيء المؤسف والمحزن في الخيانة، هي أنها لا تأتي أبداً من الأعداء. بعض المواقف قد تؤلمك، ولكنها ستعلمك أنك كنت على نيتك أكثر من اللازم، وسوف تعلمك الحياة أن الشخص الوحيد الذي يمكنك أن تثق به، هو أنت.

{هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ} [سورة القلم: الآية 11]

لا تثق أبداً في شخص يخبرك بأسرار الآخرين، فلا تدري متى يحين دورك. من غضب منك ولم يفعل فيك شراً اختره صاحباً لك، فالغضب يفضح طينة البشر. إذا كنت تريد أن تعرف من هم أصدقاؤك، فاحكم على نفسك بالسجن. لا تغادر أي موقف قبل أن تقول فيه كل شيء ترغب بقوله، حتى لا تحترق من داخلك لاحقاً.

الفصل الثالث: وهم المادة وسراب العلاقات

{أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ} [سورة التكاثر: الآيات 1-2]

المال أرقام، والأرقام أبداً لا تنتهي، فإذا كنت تحتاج المال لتكون سعيداً فبحثك عن السعادة أبداً لن ينتهي. كثرة التنازلات في البداية تجعلك لا تملك شيئاً في النهاية. نحن لم نطلب السعادة، وإنما فقط أردنا جرعات أقل من الألم. طالما بمقدورك إدارة ظهرك للعالم كله فأنت على ما يرام.

{حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ} [سورة يونس: الآية 24]

على الناس جميعاً إدراك أن كل شيء يمكن أن يختفي في طرفة عين. لمجرد أن تعيش أصبحت الحياة أعمالاً شاقة. الحياة لن تقف لتراعي حزنك؛ إما أن تقف أنت وتكملها رغم انكسارك، أو أنك ستبدأ طريحاً للأبد. الحياة لا تعطي دروساً مجانية لأحد، فحين أقول علمتني الحياة، تأكد أنني دفعت الثمن.

الفصل الرابع: نواميس الغابة وتَحكُّم الغرائز

{ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ} [سورة الروم: الآية 41]

كلّ ما في الأرضِ من داءٍ، سببه الإنسان. الأفعى تغيّر جلدها، لا طبيعتها. والذئب العجوز لا يقع في الفخ مرتين. الإنسان الذي تربيه مصاعب الحياة، لن يكون تلميذاً لأحد. الإنسان الكاذب الوحيد الذي يصدق أكاذيبه هو الإنسان المتفائل. المدن الحديثة مقابر مضاءة.

{إِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ} [سورة الشعراء: الآية 130]

حين تتشاجر الأفيال، يموتُ العشب. وحين يجوع الأسد، لا تسأله عن الرحمة، فالفهد لا يعلّم أبناءه الرحمة. من يخاف عواء الضباع، لا يدخل الغابة. الضبع يضحك، لكنه لا ينسى الجيفة، والضبع لا يهاجم وَحده.

{زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ} [سورة آل عمران: الآية 14]

من يطارد الفراشات، ينسى طريق العودة. الرجل الذي لا يستطيع قيادة نفسه، تقوده امرأة تعرف ضعفه. المرأة ترى ما لا يراه الرجل... لكنها تصمت حتى تحتاجه. المرأة الجميلة مثل النار الدافئة... اقترب كثيرًا فتحترق.

الفصل الخامس: عِبء الوعي وأديم الأرض

{إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا} [سورة الأحزاب: الآية 72]

الحرية الحقيقية تبدأ حين تفقد الرغبة في إقناع أحد. الوعي لعنة، وكلما فهم الإنسان أكثر ازداد تعاسة. الذكاء المفرط يجعل صاحبه غريباً حتى عن نفسه. التفكير المستمر شكلٌ بطيء من الانتحار. المرءُ يسعى ليدركَ العلم، والعلمَ لو أدرك المرءَ أضناه. عندما تتوقف عن التعلم، فإنك حينها تبدأ بالموت. أسوأ ما في الألم، أنه يمنحك بصيرة لا تريدها.

{لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ} [سورة البلد: الآية 4]

تعبٌ كلها الحياةُ فما أعجبُ إلا من راغبٍ في ازدياد. يدُ تُبدي صنعةَ الخالقِ، وأُخرى تُكُرُ الصانع، فالعقل بينهما حيران. غير مجدٍ في مِلّتِي واعتقادي.. نوح باكٍ ولا ترنم شادِ. كل يقين بداية تعصب، والتاريخ ليس إلا موكباً من الأوهام الملطخة بالدم.

{مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى} [سورة طه: الآية 55]

قالوا وجودك من فضلٍ ومن منٍ.. فقلتُ: ليتكم لم تمنوا ولم تفْضلوا. هذا ما جناه عليَّ أبي، وما جنيت على أحد. اثنان أهل الأرض: ذو عقلٍ بلا دينٍ، وآخر دين لا عقل له. إذا لم تَجدْ في نفسك حُبّاً للحقيقة، فاعلم أنك عبدٌ لما وُلدتَ عليه. خفف الوطء ما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد.

الخَاتِمَة: خُلاصَةَ العُزلَةِ والاستِغْنَاء

{يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ} [سورة الانشقاق: الآية 6]

ينتهي الصخب، وتتلاشى الوجوه، وتفرغ الساحة، وتكتشف في النهاية أنك جئت وحيداً وسترحل وحيداً، وأن كل تلك المعارك التي خضتها لتثبت نفسك للآخرين لم تكن سوى وهم بدّدت فيه عمرك. الحياة قطار بارد لا يتوقف ليركب الحزانى، ولا يبطئ ليرتاح المتعبون؛ إما أن تنهض فوق انكسارك وتكمل السير بكبرياء مستغنٍ, أو أن العجلة ستدهسك وتبقى طريحاً للأبد.

{فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ} [سورة لقمان: الآية 33]

الآن، وبعد أن تعريتَ من أوهامك: غادِرْ كل موقف لا يمنحك قيمتك كاملة، ولا تتمسك بيدٍ لم تشد على يدك وقت انكسارك. كثرة التنازلات في البداية لم تترك لك شيئاً تملكه الآن سوى الخيبة. تذكر دائماً أن الذين تظاهروا بأنهم لا يعانون، كانوا يصرخون في علاقتهم أشد منك، وأن الذين ائتمنتهم على سرك كانوا ينتظرون دورهم ليفضحوا طينتك. لقد سقطت الأقنعة كلها؛ فلا المال نفع من ربط سعادته برقم لا ينتهي، ولا البشر أضافوا شيئاً لمن استوحش من وحدته.

{يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ} [سورة عبس: الآيات 34-36]

إذا أردت النجاة في هذه الغابة البشرية، فاحكم على نفسك بالعزلة قبل أن تحكم عليك الظروف بالسجن. تعلّم من الذئب العجوز كيف لا تقع في الفخ مرتين، واعلم أن الشخص الوحيد الذي يمكنك أن تثق به دون خوف هو أنت. طالما بمقدورك الآن أن تدير ظهرك للعالم كله، فأنت على ما يرام.

{كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ} [سورة القصص: الآية 88]

الحرية الحقيقية بدأت الآن؛ حين فقدتَ الرغبة في إقناع أحد، وحين أدركتَ أن كل ما تملكه يمكن أن يختفي في طرفة عين. خفف الوطء وأنت تمضي في أيامك المتبقية، فالأرض التي تمشي عليها مجبولة من حسرات الراحلين. لقد كُشفت لك العِلة، ودُفعت ضريبة الوعي كاملة من غضب نفسك وحطام قلبك..

{بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ} [سورة القيامة: الآيات 14-15]

أغلق الكتاب الآن، وتأمل عري هذا الوجود، وعش بما تبقى لك من.. لعنة البصيرة.